مـــــــذكـــــــرات

"مـــا يـــؤلم الآن" .. غـــونـتر غـــراس يقـــشـير الـبـــصل

نـيـل آشـــرســـون
ترجمة : نجام الجبيلي

تقشير البصل غونتر غراس

قبل (٦١) عاماً كان ثمة شابان ألمانيان تعيسان يربضان في حجر مبلل بالمطر تحت الأرض وحولهما، في الميدان نفسه، خلف أسلاك شائكة، كان هناك الآلاف من سجناء الحرب الآخرين ينتظرون لاكتشاف عما يفعل بهم الأمريكان، ولكي لا يشغلا بالهما بالجوع والبرد كان الصبيان –أحدهما من "دانزيغ والآخر بافاري– يلعبان النرد ويتحدثان عن خططهما للمستقبل على افتراض أن هناك مستقبلاً. كان الصبي من دانزيغ يريد أن يصبح فناناً ويأمل البافاري أن يصبح كاهناً.

في (٢٠٠٦)، كلا الولدين –وهما الآن كبيرا السن و شهيران جدا– ارتكب خطأ مضحكاً إذ ترددت طرطشاتهما حول العالم ولوثت سمعتهما. جوزيف، البافاري التقي الذي تربى ليصبح الكاردينال "راتزينغر" ثم البابا "بندكت" السادس عشر، روع العالم الإسلامي وعدداً من الكاثوليك الليبراليين باقتباسه من قول إمبراطور بيزنطي غير مناسب بحق النبي محمد. أما الغلام من دانزيغ –الذي أصبح أشهر كاتب في ألمانيا وفاز بجائزة نوبل، فقد كان سوطا لأولئك الذين ظلوا صامتين عن ماضيهم النازي، كشف أنه أدى خدمته الحربية القصيرة في سلاح الأس الأس" () (Waffen SS إن الحرفين هما اختصار للكلمتين الألمانيتين Schutz Staffel اللتين تعنيان الوحدة الواقية، وسلاح الأس أس هو وحدة شبه عسكرية تابعة للحزب النازي استعملت كشرطة خاصة).

ذلكما الصبيان في الجحر يخلقان قصة جيدة. لكن ما مدى صدقها؟ بالتأكيد أن غراس تقاسم الجحر مع جوزيف البافاري. كانا يأكلان حفنة من بذور " الكروياء" التي قايضها غراس من أجل سيجارتين ويتجادلان حول اليقين والعقيدة والشك. كان البابا المقبل بالتأكيد موجوداً في معسكر كبير مفتوح في " باد آيبلنغ" ولكن كان هناك عشرة آلاف آخرون. هل كان الاسم الآخر لجوزيف هو " راتستنغر" حقاً؟ يعترف غراس في هذا الكتاب إنه لا يمكن أن يكون متأكداً. وقد علقت أخته بعد عدة سنوات قائلة: " هذه مجرد إحدى قصصك النمطية الملفقة لتثير أعصاب أمنا، حين كنت صغيراً".. وردّ غراس بسرعة غاضباً إنهما قامرا أيضاً بمستقبليهما المقررين. لو لم يرم "جوزيف" ثلاثاً لأصبح بعدئذ فناناً وكاتباً بينما سيصبح غراس مطراناً أو حتى أفضل من ذلك. وتضيف أخته قائلة:" بصراحة إنك تكذب مثل مهرج". ماذا تتذكر حقاً، وماذا تتذكر أو تنسى لأنك ترغب بذلك؟ يقال أن البابا لا يتذكر أنه التقى غراس تحت الأرض. لكن فيما بعد ربما يكون "جوزيف رايتزينغر" هو الناكر. وأي فخر يريد الكاردينال أن يناله في تذكر أسابيع من البؤس وغزو القمل في ملابسه الرطبة الرثة؟ وأي اطمئنان سيشعر به ابن الكنيسة الطموح من الإعتراف بمثل هذه الحميمية مع كاتب مُجدف جداً؟

لم تكن الضجة حول غراس تتعلق بالإنكار. بل بالقمع. إن الحقائق عن خدمته في الحرب كما أظهرها غراس نفسه، لم تثر الفضيحة، إن الذي أثارها هو إخفاؤه لها. ومن السهولة تلخيص هذا الجزء من حياته. فحين كان عمره ١٧ سنة وفي الأشهر الأخيرة من الحرب أدخل في خدمة قسم جديد لسلاح" الأس أس" وكان وقتها يحاول أن يدخل خدمة البحرية كملاح في غواصة ألمانية (U-boat.) إنه لم يختر "الأس أس" لكن لم يحاول أن يتجنبه. وبالنسبة له كان "سلاح الأس الأس" ليس سوى قوة قتالية ساحرة تمتلك أسلحة مثيرة. وقد تدرب كرامي دبابة لكن فرقة "فرندسبرغ" وهي تشكيل معزز بصورة كبيرة بصبيان نصف متدربين وطواقم أرضية تابعة لسلاح الجو الألماني (لوفتفافه)، سقطت حين أقتحم الجيش الأحمر نهر " الأودر" (نهر في وسط أوربا يجري عبر جمهورية التشيك وبولندا ويصب في بحر البلطيق وهو يشكل مع نهر "نايسه" حدود (خط أودر– نايسه) بين ألمانيا وبولندا–م) في آخر هجوم له. وبعد أن أدخل في بعض المعارك الرهيبة والتي أدعى أنه لم يطلق فيها رصاصة واحدة أصبح هارباً.

وقد جرح نتيجة القصف ودخل مستشفى ميدانياً في " مارينباد" في بوهيميا حين انتهت الحرب وبعد أطلاق سراحه وجد نفسه في "باد آيبلينغ".

كل ذلك لم يكن سوى تجربة لعشرات الآلاف من الشباب الألمان في تلك المرحلة من الحرب. لم يشترك غراس في أي انتهاك أو أعمال وحشية. لم يكن سوى كتلة صغيرة من مدفع تلقمه العقيدة الصلفة للرايخ والفوهرر. لم ينكر أبداً تلك العقيدة وكما قال في أحدث مقابلة له في صحيفة " ال بايس" :" لقد اعترفت دائماً بانتمائي للنظام حين كنت شاباً. لم يكن ذلك سراً أبداً". لكن هذا الفصل الفريد في حياتي كان أمراً احتفظت به لنفسي". في ذلك الوقت لم يكن لديه علم بما كان يفعله "الأس الأس" وراء جبهة العدو. وارتبك تماماً حين نصحه عريف كان يسير معه خلال هروبه بأن ينزع باجات الأس أس عن ياقته في حالة أمساك الروس به، وباختصار، إنه لم يرتكب أفعالاً شخصية مخجلة. إذن لماذا وجد صعوبة في الاعتراف خلال حياته كلها تقريباً بأي جانب كان وأية بذلة نظامية كان يرتدي خلال تلك الأشهر القليلة؟

إن الكثير من الإساءات التي لحقت بـ"غراس" في الأشهر القليلة الماضية قد جاءت من أعداء ومنافسين قدماء. أولئك الذين استشاطوا غضباً من هجائه– وبالأخص من اليمين القومي – وامتعضوا مما عدوه إهاناته المنظمة للثقة بالذات الألمانية، كانوا مفتونين. فأي سقوط مفاجئ! وقد أخفى ماضيه وهو الروائي الكبير الذي كان مقبولاً من العالم الخارجي كونه ضمير ألمانيا السياسي. لكن هناك العديد من الألمان الذين استعملوا تلك الروايات الأولى – طبل الصفيح، قط وفأر، سنوات الكلب – كي يكوّنوا فكرة خاصة عن أمتهم ولعنة فقدان ذاكرتها وهم يتألمون كأن غراس قد خدعهم. كان يمكن أن يقول الحقيقة عن تلك الأشهر فلا أحد يفكر بالنيل منه. في الواقع أن الاعتراف بأنه كان في "الأس أس" مهما تكن المدة قصيرة، قد يعطي أيضاً مرونة أكبر لرواياته وسياساته. فما الذي منعه حتى هذا الوقت المتأخر جداً؟

من المستحيل أن تبرئ غراس من تهمة النفاق، في النتيجة إن لم يكن ذلك في القصد. كان صديقاً للراحل كارل شيللر، الديمقراطي الاشتراكي ووزير الاقتصاد. في رسائل مؤرخة عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٠ اكتشفت ونشرت في صحيفة " فرانكفورتر ألغمينانه" كان غراس يحث شيللر على أن يكون نظيفا ويتكلم بصراحة عن عضويته في الحزب النازي: كان شيللر أحد "جنود العاصفة" في شبابه، وأثناء الحرب أصبح مستشاراً في القوات المسلحة(الفيرماخت) لشؤون الاستثمار الاقتصادي في المناطق المحتلة. ويتساءل غراس: كيف استطاع شيللر أن يوجه النقد بكل ثقة لجورج كيسنجر –الذي أصبح مستشاراً فيما بعد –بسبب ماضيه النازي الأبرز دون الاعتراف بماضيه؟ يقول:" اعتقد أنه من الأفضل أن تُقرّ بصراحة بأخطائك. سيريحك ذلك. وفي الوقت نفسه سيريح الجمهور، ويشبه الأمر الراحة التي يمنحها التطهر من العاصفة الرعدية".

كيف استطاع أن يكتب ذلك دون وخزة من الكره الذاتي؟ وقتها كان غراس نفسه يهدر في الأرض طولاً وعرضاً شاجباً ماضي كيسنجر في خطابات فخمة. فماذا عن ماضيه وخدمته في الحرب؟ الرواية المقبولة في ألمانيا حينئذ هي أنه قد جند إلزاميا لمدة وجيزة رغماً عنه في بطرية مدفعية مضادة للطائرات. وكان ذلك صحيحاً– فأطفال مدارس دانزيغ أرسلوا إلى الدفاعات ضد الطائرات في عام ١٩٤٤ – لكن لم تكن تلك هي الحقيقة بأكملها.

إن تاريخ ألمانيا إلى حد ما هو تاريخ الصمت. في البداية كانت هناك أمور تعلّم المرء أن لا يصرّح بها، سرعان ما لحقتها أسئلة تعلّم المرء أن لا يسألها وهذا أدى إلى مشاهد تعلّم الناس أن يروها. ثم كانت هناك أسئلة تعلّم الناس أن لا يجيبوا عنها (من محققي قوات التحالف ومن الأطفال والناس أيضاً) ومرة أخرى أمور تعلّم الناس أن لا يصرحوا بها لأن " لا فائدة في التحدث عن كل ذلك".

ومع غراس، نلتقي مع مثل هذا الصمت الألماني لدى واحد من أروع الكتاب والمتكلمين الأوربيين وأحد أعلى الأصوات التي تنم عن النزاهة والإنسانية. لكن أليس الجدير التساؤل كم كان هذا الصمت كاملاً في الواقع. كانت عائلة غراس تعرف بالطبع. ويبدو أنه أخبر زوجته الثانية لا زوجته الأولى ربما لكونها سويسرية وليست ألمانية. وقد يكون أخبر بضعة أصدقاء له. والغريب في الأمر أن المئات من الشباب لا بد وأنهم كانوا يعرفونه في تلك الأشهر خلال التدريب أو في المعارك؛ ولو كانوا أحياءً لتعرفوا بالتأكيد على رفيقهم القديم كاتب ألمانيا الغربية المشهور ولعرفوا في أي وحدة قد خدم. إنهم لم يقولوا شيئاً. وقد يكون الصحفيون والباحثون الأدبيون في السنوات الأخيرة قد تعمقوا في البحث عن الحقائق التي تكمن في الوثائق المفتوحة المتاحة. كان غراس مسجلاً كجندي سابق في "سلاح الأس أس" حين أطلق سراحه الأمريكان. و لو أن بعضهم قد تصفح تلك الأوراق فإنه لن يشير إليه. يبدو مؤكدا لي أن عدداً كبيراً جداً من الناس بغض النظر عن كونهم من المعجبين بأعماله أو سياساته كانوا واعين بأن غراس كان في خدمة "سلاح الأس أس" لكنهم اعتقدوا بأن " لا جدوى من الحديث عن كل ذلك".

في عقود ما بعد الحرب كان الأجانب قلقين بسبب العجز الواضح لعدد كبير من الألمان في فهم المعاناة التي جلبتها أمتهم على الآخرين. لكن شخصاً ما – قد يكون غراس نفسه –كتب في الآونة الأخيرة أن الصمت كان في الواقع استمرارية لصمت مبكر آخر: امتناعهم عن التصريح بمعاناتهم.

ثمة سبب وراء ذلك. هناك دراسة مشهورة نشرت عام ١٩٦٧ من قبل اختصاصيين في علم النفس هما: مارغاريت والكسندر متشرليخ بعنوان " die un fahigkeit zu trauren" العجز عن الحداد بدلاً من العجز عن التعاطف مع الآخرين. ليست المسألة إن الألمان فيما بعد الحرب كانوا بحاجة إلى الإشفاق على الذات. فما مدى فشلهم في الإشفاق على أنفسهم حين يتذكرون المذبحة أو اقتياد السيبيريين أبناءهم وتدمير مدنهم التاريخية والفظائع التي كان القصد منها طرد وتهجير ١٢ مليون ألماني من مركز أوربا وشرقها، الاغتصاب الجماعي أو في بعض الحالات التي يصعب تحملها مثل –التجويع المخزي والقذارة والفساد التي وقعت عليهم بعد انهيار الرايخ؟ لكن الإشفاق على الذات والألم ظلا سرين.

كان الظلم مسألة أخرى. إذ عمّت وضجّت احتجاجات الجماعات المهجّرة ضد فقدان بيوتها وانتهاك ما سموه "حقهم في تقرير المصير"

وعلى النقيض فإن الحداد حصل وراء الأبواب المغلقة حين عشت في "بون" في الستينيات كان الجيران الذين نجوا خلال تدمير مدينة "درسدن" اعتادوا على التجمع بهدوء فيما بينهم في يوم ١٣ شباط من كل عام. ولم تشر الصحف إلى هذه المناسبة السنوية. كانت حوادث الاغتصاب تذكر خلف ستار الصمت إلى أن نشر الصحفيون الأجانب والمؤرخون، بعد سنوات، ما كان يعرفه الألمان من كبار السن. ومثلما حدث قبل أربع سنوات حين كتب غراس رواية "مشي السرطان" أو (السير للوراء) فصعق الجمهور الألماني لأنها تدور حول مذبحة مدنيين حين سقطت بروسيا الشرقية ودانزيغ بيد الروس وعن غرق سفينة للمهاجرين تسمى "فيلهلم غوستلوف" بسبب طوربيد إذ فقد حوالي تسعة آلاف شخص بضمنهم خمسة آلاف من الأطفال. لقد كسر غراس متعمداً الصمت الألماني. وبالنسبة له "كانت هناك جدوى وحاجة للتكلم عن كل ذلك".

ومع هذا، ظل حتى الآن محتفظاً بسر واحد من (كل ذلك) الخاص به. إن كتاب "تقشير البصل" هو مذكرات ثرية مدهشة عن حياته قبل أن يصبح كاتباً معروفاً (في عام ١٩٥٩ ومع ظهور رواية " طبل الصفيح") وتشي بسلسلة من التأملات المعقدة وأحياناً المخادعة عن الذكريات والذاكرة والتي توضح قليلاً سبب ترديه هذه المدة الطويلة. لم يكن هناك خوف كبير من تشويه صورته لدى الجمهور على الرغم من أن صعوبة الاعتراف بحادثة "سلاح الأس أس" أصبحت واضحة على مر السنين. كانت بالأحرى ذنباً لا يغتفر: معرفة كونه، حين كان طالب مدرسة ثم مراهقاً بالبذلة النظامية ، كان فعالاً مخلصاً طائعاً لماكينة القوميين الاشتراكيين. إنه الذنب الذي من أجله رفض البراءة والسذاجة والشباب– " كونها ظروفا مخففة." كنت مجرد طفل، مجرد طفل، كنت صامتاً لأن الكثير من الآخرين بقوا صامتين. كان الإغراء كبيراً لتحويل اللوم إلى ذنب جماعي أو التكلم عن الذات فقط بصيغة الشخص الثالث بصورة مجازية: كان، رأى، فعل، قال، ظل صامتاً.." وغراس يكتب عن نفسه هنا. و كل ما فعله أو فكر به أو عاناه في تلك الأوقات مثله عدد ضخم من الشخصيات في رواياته وليس فقط أوسكار ماتزيراث في رواية " طبل الصفيح" .لكن لو تمنى أن تكون الرواية بصيغة الشخص الثالث نوعاً من التطهر، فمن الواضح أنها لم تكن كذلك.

الذنب يبقى. يظل يرنّ. فهو يظل معك حتى لو كنت في رحلة إلى اللامكان... أن الإثم يسمح لنفسه برأفة أن ينسى لفترة وجيزة ويُسبت في الأحلام. يبقى كالرأسب، كبقعة لا يمكن إزالتها،كالقذارة التي لا يمكن كنسها. وعرف مبكراً كيف يتخذ ملجأ له في السمع كاعتراف، كي يجعله مرور الوقت أو الغفران منه أصغر فأصغر، لا شيء. عندئذ يبدأ بالنهوض مجدداً.

فيما بعد يُلمح غراس إلى " الذي لا يزال مغلفاً: الأسرار المخجلة المكبوتة ذات الأقنعة المتغيرة. ما يشبه بيوض القمل المدفونة في الشعر. كلمات مراوغة مطنبة شظايا الفكرة. ما يبعث على الألم. حتى الآن".

إن الكتاب كما قال غراس هو محاولة لإعادة اكتشاف واستنطاق الذات المبكرة التي ابتدأت "بذلك الطفل في عام ١٩٣٩ الذي بدا لي شخصا بعيدا عني ". وتعود صورتان لهذه العملية إلى الذهن. إحداهما البصل في العنوان القشور الهشة للذكرى التي تُزال كي تكشف الغامض والمخادع من خربشات الذاكرة، والآخر هو الكهرمان. الشظايا الشفافة التي اعتاد البحث عنها على سواحل البلطيق، بالقرب من بيته، التي تحوي أحياناً حشرات من ماض بعيد لا يمكن تخيله، هي مجاز لسلسلة أحداث لا يمكن إنكار وقوعها لكنها فقدت سياقها للأبد.

مركز المخطوطات يصدر

محاضرات راشد ومكي وأدونيس والغنيم على أسطوانات مدمجة

محمد الحمامصي

أصدر مركز المخطوطات بمكتبة الإسكندرية خمس عشرة محاضرة على اسطوانات مدمجة لكلٍ من الدكتور رشدي راشد والدكتور محمود مكي والشاعر الكبير أدونيس والجغرافي د.عبد الله الغنيم وذلك في إطار برنامج الباحث المقيم الذي يقام بمركز المخطوطات على فترات متتالية والذي يهدف إلى إحياء تقليد من تقاليد المكتبة القديمة في تضييف كبار الباحثين والعلماء من جميع أنحاء العالم للإقامة بالمكتبة لتأصيل المعرفة وتطوير العلوم كل في مجاله ومن هذا المنطلق وسيراً على هذا الدرب ضيف مركز المخطوطات الأستاذ الدكتور رشدي راشد– وهو علامة دولية في مجال تاريخ العلوم العربية– حيث ألقى خلال فترته البحثية أربع محاضرات جاءت كالآتي: المحاضرة الأولى: العالم العربي وتجديد العلوم . المحاضرة الثانية: رياضيات ديوفنطس الإسكندراني وتجديدها بالعربية وانتقالها إلى أوروبا . المحاضرة الثالثة: بين الرياضيات وعلم المناظر: ابن سهل، ابن الهيثم، الفارسي، ديكارت . المحاضرة الرابعة: فلسفة الرياضيات العربية بين حساب التوافق والميتافيزيقا..هذا بالإضافة إلى محاضرة خامسة القاها في مؤتمر المخطوطات الشارحة بعنوان : أخطاء النساخ بين الرياضي والوراق .. ثم جاء الأستاذ الدكتور/ محمود على مكي وهو من أعلام الدراسات الأندلسية في مصر والعالم ليتناول الفترة الأندلسية من خلال ست محاضرات ألقاها على مدار أسبوعين وهي: المحاضرة الأولى: الفجر الأندلسي..المحاضرة الثانية: الإسهام الأندلسي في علوم الدين..المحاضرة الثالثة: الفكر اللغوي والفلسفي والعلمي..المحاضرة الرابعة: الأدب الأندلسي..المحاضرة الخامسة: الإسهامات التاريخية والجغرافية للعلماء الأندلسيين..المحاضرة السادسة: الأثر الأندلسي في الثقافتين العربية والأندلسية.وبعد هذه الفترة البحثية للدكتور محمود مكي ضيف مركز المخطوطات الشاعر والمفكر الكبير أدونيس حيث ألقى أربع محاضرات تناول في المحاضرة الأولى: الثابت والمتحول فى الثقافة العربية: قراءة المؤلف لكتابه: الثابت والمتحول وفي المحاضرة الثانية: الذائقة الشعرية العربية (ديوان الشعر العربي) وفي المحاضرة الثالثة: الشعر والفكر في الموروث العربي، وفى المحاضرة الرابعة علاقة الشعر بمفهوم الهوية..وأعقب أدونيس الأستاذ الدكتور/ عبد الله غنيم ومحاضراته التي عنيت بعلم الجغرافيا؛ فجاءت المحاضرة الأولى بعنوان نظرات في التراث الجغرافي ،والمحاضرة الثانية بعنوان أحمد بن ماجد رائد الملاحة في المحيط الهندي والمحاضرة الثالثة بعنوان الزلازل في التراث العربي والمحاضرة الأخيرة عن تبادل اليابس والماء بين اليونان والعرب .

وقد أكد د.يوسف زيدان مدير مركز المخطوطات ومتحف المخطوطات أن هذه المحاضرات تشكل أهمية كبيرة للباحثين والمثقفين لما تحتويه من مادة علمية ثرية وردا على أسئلة محورية في هذا العلم أو ذاك، حيث حرص برنامج الباحث المقيم على تنوع تخصصات الباحثين، الأمر الذي يثري الحوار العلمي والفكري والثقافي ويضع النقاط على الحروف بشأن الكثير من القضايا الحيوية في هذا العلم أو ذاك.

وقال د.يوسف زيدان أن هذا الإصدار المهم لمحاضرات الباحث المقيم يأتي مواكبا مع إصدار آخر لمركز المخطوطات وهو المجموعة الرقمية الرابعة لمخطوطات المعهد الديني والتي تضم سبع مخطوطات من أنفس مقتنيات المعهد الديني بالإسكندرية والتي انتقلت مجموعته إلى القاهرة والتى تضم: – شرح الإعراب–الكافيجي . مرآة الأصول –ملاخسرو . تلقيح الأفهام –الكلاباذي . مبادئ الوصول –لابن المطهر . الجامع الوجيز – البزازي . منظومة الخلاف–النسفي . الدرة المضيئة –أبي بكر الحنفي . وهذا بعد صدور المجموعة الأولى من أندر مخطوطات بلدية الإسكندرية، والتى تضم: قصيدة البردة، الإمام البوصيري . ديوان سلامة بن جندل، سلامة بن جندل . البديع في نقد الشعر، أسامة بن منقذ . الزيج الجامع، كوشيار بن لبان الجيلي . التاريخ الكبير، المقريزي . غياث الأمم التياث الظلم، إمام الحرمين أبو المعالي الجويني . اللمع في النحو، ابن جني والمجموعة الثانية لمكتبة التراث الإسلامي بمسجد العارف بالله أبو العباس المرسي وتضم: رسالات الاسطرلاب، مجموعة مؤلفين . جامع المسانيد والألقاب، ابن الجوزي . الإصلاح و الإيضاح، ابن كمال باشا . خلاصة الحساب، بهاء الدين العاملي . مقالة في علم الهيئة، ابن الهيثم . تلخيص البيان عن مجازات القرآن، الشريف الرضي . ديوان الأريب في مختصر مغني اللبيب، الساموئي

والثالثة لأندر مخطوطات مكتبة جامعة أوبسالا بالسويد ضمن اتفاقية تعاون مشترك بين المكتبة والجامعة وتضم: ميزان الطبيب، ابن البيطار . سر الخليقة، بلينوس . كمامة الزهر الحضرمي . الحيل الروحانية، للفارابي . الحكمة العروضية، ابن سينا . الجوهرتين العتيقتين، الهمداني .

ادونيس

بغـــداد

ليث الصندوق

العرائسُ اللواتي قِطعنَ أثداءَهنّ
وأطعمنَ بها كلابَ المجازرِ والسجون
تخلينَ لكِ عن سكاكينِهنّ
تمسحينها كأنها أميالُ المكاحل بأهدابك
لقد انتظرن نصف العمر
ليأتينك نادماتٍ على أقمار
حولتها العنوسةُ
الى عجلاتٍ في عرباتِ المُعاقين
❖❖❖
أنتِ حرّرتِ العرائسَ من موتهنّ
تاركةً كلابَ مجازرهِ وسجونَه
تأكل بعضَها
كأنها تستخرج من أشداقها
حزماً من الذيول
❖❖❖
هل سميتِ بغداد
لأن ثوبَ زفافك مرقوعٌ
أم لأن أصابعك المبتورةَ
تنمو كالبذورِ في الطين،
وتتفرع، وتثمر من جديد.
❖❖❖
بالرغم من اليورانيوم
الذي تتجرعينه مراتٍ قبلَ البكاء
إلا أن السماءَ المحشورةَ بين جفنيك
كما تحشرُ الأحلامُ في وسادة
مازالتْ صافيةً
كأن الله
نخلَ لأجلكِ الضوءَ والمطرَ بغِربال
❖❖❖
وبالرغم من الكمّامات والسيُور
فنخلتك تتجه للشمس
كيد تحمل مقصاً
مؤذنةً بافتتاح مهرجانِ المصابيح
هكذا أخجلت الصيفَ
من سترتهِ المزررةِ بالجمر
فانحسر
مسترضيا شماريخك بالاساور والاقراط
❖❖❖
من فرط التخمّر والطلقات
مثقبةً أنتِ كالجبن
لكنك الاحلى على اتساع الثقوب
التي يخفي فيها اللصوص صررهم
وتتسلل عبرها الجيوش مدججة

بالفيروسات
لقد ظلت ابتسامتك عصيةً على السوس
والأرضة
كلما ألبسك منافسوك حذاءً من حديد
خرجتِ كشمس مبللة مَن الماء
ولكن، إلى أين نذهب بك؟
فالجردان تتعقب رائحة الدهن
قرضاً في الجماجم والجرار
أيتها المفخورة على نيران الحسرات
عندما ننظر اليك بمراصد القلوب
نراك أكبر من القارّات
فالتاريخ لا يقاس بالاقدام
بل بالرؤوس
❖❖❖
أطفالك المعروضونَ في مزاداتِ
سيكبرونَ في جيوب الباعة
وفي سلال الشارين
ولن ينسوا
إنك بعد قرون على آخر الولاداتِ
مازلتِ تعانين آلام المخاض
وإن مغناطيس حلمتيك
سيلتقطهم من قيعان الكؤوس والفناجين
ليعودوا رضعاً في كهولتهم
لكن، الى متى تنجبين أطفالاً معاقين؟
ألم يكف ان النهود التي ترضعهم
هي حصى الخانات والمقابر؟
وإن المهود التي هدهدتهم
متورمة من فرطِ النواح؟
وإنهم سيكبرون
معلقين من أهدابهم في السقوف
منتظرين السماء
تحلي أفواههم المرورة بالعسل؟
إحملي التاريخ على ظهرك
إلى قرى لا تبيض فيها المدافع والراجمات
ولا تلد فيها الذئاب ضباعا
والضباع نخاسين ومرابين
❖❖❖
إحملي أطفالك في جيبك
إنهم كبلورات السكر
يذوبون في اللعاب
❖❖❖
إحملي أشجار اليوكالبتوس الى الحمام
فلي أغصانها من قمل السكارى،
وعطريها بندى الجروف
ثم ألبسيها فساتين الضباب البيض،
وزفيها للشوارع الفرعية
قبل أن تطحن برحى
وتعبأ في الغلايين والناركيلات
❖❖❖
إحملي شارع النهر الى المناحل
لتلحم حسناواته برضابهن صدع رخامكِ
أنهن حائرات
بالأمس كان العشاق يلطعون في زجاج الدكاكين
عسل وجوههنّ
لكنهن اليوم مكفنات بالشاش
مخافة أن تهرب أثداؤهنّ من العرى والأكمام
إحملي شارع النهر
إحمليه قبل ان تتيبس فراشاتهُ
وتكنس من السواقي كأوراق الهشيم
وقبل أن تمتلئ قواريره بالعناكب والصراصير
❖❖❖
إحملي الجسور والقاطرات
على نقالات الى المستشفى
انها بحاجة الى دم وأوكسجين
❖❖❖
إحملي بناية الطب العدلي الى السماء
فموتاك في الأرض
يتدافعون بالأرجل